في الدفاع عن العقلانية

كارل بوبر
ترجمة وتلخيص: محمد هاني السيد أحمد

تركز هذه المقالة بصورة أساسية على تحليل معاني العقل والعقلانية، وذلك من خلال بيان الطرق التي تستخدم فيها هذه المصطلحات. كما أنها تركز كذلك على تناول بعض الحجج التي يقدمها بوبر، في الدفاع عن العقلانية في مواجهة دعاوى اليمين واليسار اللاعقلانية، والتي أدت إلى تقويض الاعتقاد بالعقل، وأخذت تهدد الموقف العقلاني حيال المسائل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وحتى الأخلاقية.

لأن مصطلحات العقل والعقلانية غامضة، فإنه من الضروري أن نبين بصورة تقريبية الطريقة التي تستخدم بها هذه المصطلحات

أولاً: إنها تستخدم هنا بمعنى واسع، فهي لا تستخدم لتشمل النشاط العقلي وحده، بل لتشمل الملاحظة والتجربة. ومن الضروري أن نستبقي هذه الطريقة في الاستخدام حاضرة في أذهاننا، لأن العقل والعقلانية كثيراً ما تستخدم بمعنى مختلف وأكثر ضيقاً، فهي لا تستخدم في مقابل اللاعقلانية وحدها، ولكن أيضاً في مقابل التجريبية. واذا ما استخدمت بهذه الطريقة أي في مقابل التجريبية فإن العقلانية عندئذ تعني وضع العقل في مكانة أرفع من مكانة الملاحظة والتجربة،

محمد هاني السيد أحمد

وبالتالي فإنه قد يكون من الأفضل وصف العقلانية، بأنها تعني المذهب العقلي.

لكن بوبر يصرح في أكثر من موضع من أعماله بأنه تجريبي وعقلاني. وهو يستخدم العقلانية دائماً بالمعنى الذي يشتمل على المذهبين التجريبي والعقلي معاً. تماماً كما أن العلم يستخدم التجارب بالإضافة إلى العقل.

ثانياً: إن كلمة العقلانية تستخدم لتشير تقريباً إلى ذلك الموقف الذي نبحث فيه بقدر الإمكان عن حلول للعديد من المشكلات عن طريق الاحتكام إلى العقل، أي إلى الفكر الواضح المستنير وإلى الخبرة، وليس عن طريق الاحتكام إلى العواطف والانفعالات. إلاّ أن هذا التفسير لا يكفي بطبيعة الحال، لأن كل المصطلحات من قبيل عقل وعاطفة تظل مبهمة. فنحن لا نمتلك عقلاً أو عاطفة بنفس المعنى الذي نمتلك فيه أعضاء فيزيائية معينة كالدفاع أو القلب، والتي تنتسب إلى عالمي الكيمياء والأحياء. أو بالمعنى الذي نمتلك فيه لقدرات معينة مثل القدرة على الكلام أو صرّ أسناننا، وهي قدرات تنتسب إلى عالم السيكولوجيا.

ثالثاً: وبالتالي قد يكون من الأفضل أن نفسر العقلانية على أساس المواقف العملية والسلوك. وعندئذ يمكننا القول بأن العقلانية هي ذلك الموقف الذي تبدي فيه استعدادنا للاستماع إلى حجج نقدية أو بأن نتعلم من الخبرة. وهي بصورة أساسية ذلك الموقف الذي نسلم فيه بأنه من الممكن أن نكون على خطأ ومن الممكن أن نكون على صواب وأنه عن

طريق السعي والمحاولة يمكن أن نقترب أكثر فأكثر من الصواب. فهي الموقف الذي لا يقطع الأمل بسرعة، لأن الناس عن طريق النقاش والملاحظات المتبصرة يمكنهم الوصول إلى نوع ما من الاتفاق حول العديد من المشكلات الهامة، وأنه حتى عندما تتصادم مصالحهم ومطاليهم فإنه يمكنهم في معظم الأحوال أن يتناقشوا بشأن مختلف تلك المطالب والاقتراحات ، وأن يصلوا إلى تسويات عادلة تكون مقبولة من الأغلبية، إن لم تكن مقبولة من الجميع. بإختصار فإن الموقف العقلاني أو الراشد، يتماثل تماماً مع الموقف العلمي الذي يقوم على الاعتقاد بأننا في البحث عن الصحة والصواب نحتاج إلى تعاون وأننا عن طريق النقاش يمكننا في نهاية المطاف أن نصل إلى شيء ما يشبه الموضوعية. وإلى حد ما ، فإن من المهم أن نحلل هذه المماثلة بين الموقف العقلاني والموقف العلمي. ذلك أن دراسة هذا التماثل يمكن أن توضح لنا الطبيعة الاجتماعية للعقلانية والصوابية بصورة دقيقة في مقابل الملكات والقدرات العقلية أو الذكاء أو الفطانة. فالعقل يمكن القول بأنه مثل اللغة، هو نتاج للحياة الاجتماعية. إن روبنسون كروزو الذي عاش وهو طفل معزولاً في جزيرة قفراء يمكن أن يكون ذكياً إلى درجة تمكنه من السيطرة على كثير من الصعوبات، إلاّ أنه لن يستطيع أن يخترع اللغة أو فن النقاش. ومن المسلم به انا كثيراً ما نتحاور مع أنفسنا ، إلاّ أننا قد تعودنا ذلك فقط، لأننا تعلمنا أن نتحاور مع آخرين. ولأننا تعلمنا بهذه الطريقة فإننا نعتد بها ولا نعتد بحوار الشخص مع نفسه -وبالطبع فإن هذا الاعتبار لا يخسف الموازين عندما نتحاور مع أنفسنا- وبالتالي يمكننا القول بأننا مدينون بعقولنا كما في لغتنا إلى التواصل مع البشر الآخرين. ولذلك فإن الموقف العقلاني يعتبر من الناحية الواقعية بأن النقاش هو الأكثر أهمية من حوار الإنسان مع نفسه. وهذا يفضي بنا إلى القول بأنه يجب أن نعترف بأن كل البشر الذين نتواصل معهم إنما يشكلون مصدراً لإمكانية النقاش ولإمكانية الوصول إلى معلومات معقولة، وهذا يؤسس لما يمكن أن يوصف بوحدة العقل البشري.

وبطريقة ما يمكننا القول بأن تحليلات بوبر للعقل، تتماثل مع تحليلات هيجل الذي يعتبر العقل بأنه نتاج اجتماعي أو بأنه في الواقع نوع من أنواع الروح أو بأنه روح الأمة أو المجتمع. إن الهيجليون يؤكدون بفعل تأثير بورك أننا مدينون للتراث الاجتماعي وأننا نعتمد عليه اعتماداً كلياً. وبدون شك فإننا إذا ما قارنا بين الموقفين نجد بأنهما متماثلان من وجوه ومختلفين من وجوه أخرى. إن هيجل والهيجليين جميعيون إنهم على قناعة طالما أننا ندين للمجتمع أو للأمة بعقولنا فإن المجتمع كل شيء والفرد لا شيء، أو أنه مهما كانت القيمة التي يمتلكها الفرد فهي مشتقة من المجموع الحامل الحقيقي لكل القيم. أما بالنسبة لموقف بوبر فإنه على العكس من ذلك لا ينطلق من الوجود الجمعي فهو أقرب إلى النزعة الفردية لاعتبارات تتعلق بموقفه من مسألة الحرية الفردية. فإذا قلنا مثلاً أننا مدينون بعقولنا للمجتمع عندئذ فإنه يعني دائماً بأننا مدينون به لأفراد معينين واقعيين -وربما لعدد كبير من الأشخاص المجهولين- وإلى تواصلنا العقلي معهم.وبذلك فإن الحديث عن نظرية اجتماعية في العقل أو في المنهج العلمي، يعني بدقة تلك النظرية التي هي نظرية التفاعل والتأثير والتأثر الشخصي وليست على الإطلاق النظرية الجمعية.

أيضاً عندما نتحدث عن التراث، فإن للتراث أهميته البالغة، وبصورة مؤكدة وبقدر كبير فإننا مدينون بعقولنا للتراث. إلاّ أن مصطلح التراث ومن منظور بوبر يجب أيضاً أن نحلله إلى علاقات شخصية ملموسة. وإذا ما قمنا بذلك ،عندئذ يمكننا أن نتخلص من الموقف الذي يعتبر كل تراث مقدس أو له قيمة في ذاته، وذلك عن طريق استبدال هذا الموقف بموقف آخر، يعتبر التراث ذا قيمة أو ضاراً بحسب مقتضى الحال، وبحسب تأثيره على الأفراد. وبالتالي فإنه يمكننا أن نؤكد أن كل منا بالاقتداء والنقد يمكن أن يسهم في نمو أو عدم نمو التراث.

فنحن لا نستطيع أن نحرر أنفسنا من قيود التراث والتقليد عن طريق ما يسمى برفض التراث، لأن رفض التراث هو في الواقع استبدال للتراث بتراث آخر لكننا نستطيع أن نحرر أنفسنا من قدسية التراث بقبولنا النقدي له. فنحن نحرر أنفسنا منه إذا ما فكرنا فيه، وإذا ما سألنا أنفسنا: ما الذي يجب أن نقبله، وما الذي يجب أن نرفضه؟ وحتى نقوم بذلك فإنه يتعين علينا أن نعرف التراث بوضوح، ويتعين علينا أن نفهم بطريقة ما وظيفة وما هي أهمية ودلالة التراث. وهذا هو السبب لماذا يكون من الهام أيضاً بالنسبة للعقلانيين أن يعالجوا هذه

المسألة؟ لأن العقلانيين هم أناس مستعدون لتحدي ونقد كل شيء بما في ذلك عدم الخضوع الأعمى لأي تقليد. لأنهم يجب أن يفكروا بعقولهم وليس بعقول الآخرين وأن يفكروا في ظروفهم وليس بما عاشه أسلافهم.

كذلك ومن جهة أخرى، فإن موقف بوبر يختلف وبصورة أساسية عن موقف أفلاطون المعروف، الذي يرى أن العقل هو نوع من المقدرة التي يمتلكها-ويطورها أناس مختلفون بدرجات متفاوتة إلى حد بعيد. فالملكات العقلية بلا شك تتفاوت بين الأفراد، وهي قد تسهم وقد لا تسهم في المعقولية. فالإنسان الذكي أو العاقل ربما يكون لا معقولاً، لأنه يتشبث بآرائه وأحكامه المسبقة، ومن غير المتوقع أن يستمع لأي شيء له قيمته من الآخرين. وبالرغم من ذلك وفقاً لهذا الرأي فإننا لسنا مدينين بعقولنا للآخرين وحسب ولكن كذلك لا يمكننا على الإطلاق أن نبذ الآخرين في معقوليتنا إلى الحد الذي يثبت بأن لنا حقاً في المطالبة بالتسلط عليهم

فالتسلطية والعقلانية مذهبان لا يمكن التوفيق بينهما، طالما أن كل نقاش يشتمل على النقد، وفن الاستماع إلى النقد هو أساس العقلانية. إذن فإن العقلانية على طرفي نقيض مع كل الأحلام الأفلاطونية عن عوالم يكون فيها نمو العقل موجهاً ومخططاً من قبل عقل أسمى.

إن العقل مثله مثل العلم، ينمو عن طريق النقد ونقد النقد والطريقة الوحيدة الممكنة لتخطيط نموه هي تطوير تلك المؤسسات التي تحمي حرية النقد أي حرية التفكير.

رابعاً: وعلى ذلك فإن طريقة استخدام بوبر لمصطلح العقلانية يمكن أن تكون أوضح إذا ميزنا بين عقلانية صادقة وأخرى كاذبة الأولى هي عقلانية سقراط، وهي تعني معرفة الإنسان لحدود قدراته، كما أنها تعني التواضع العقلي والمعرفة بأننا جميعاً نخطيء وبأننا كثيراً ما نعتمد على الآخرين في معرفة أخطائنا. وبالتالي فإن العقلانية تعني التحقق أو الفهم بأننا يجب أن لا نتوقع الكثير من جانب العقل، لأنه نادراً ما يقطع في المسائل، مع أنه الوسيلة الوحيدة للمعرفة والفهم والعلم -ليس لأن نفهم بوضوح، ولكن حتى نفهم بوضوح أكثر من ذي قبل.

أما ما يسميه بوبر بالعقلانية الزائفة إنما هو مذهب البراهمة العقلية عند أفلاطون. إنها الاعتقاد بلا أدنى تواضع في الملكات العقلية الفائقة لدى الإنسان، والزعم بأنها تشرع في المعرفة بثقة ويقين. وكما نقرأ في طيماوس لأفلاطون فإن الرأي أو حتى الفكرة الصادقة تكون مشتركة بين جميع الناس، لكن العقل أو الحدس العقلي يكون فقط مشتركاً بين الآلهة وقلة قليلة من البشر. إن هذا المذهب العقلي القطعي، وهذا الاعتقاد في حيازة أداة للكشف معصومة من الخطأ ومنهج معصوم من الخطأ، وهذا الفشل في التمييز بين قدرات الإنسان العقلية ومديونيته للآخرين في كل ما يمكن أن يعرف أو أن يفهم، هذه العقلانية الزائفة غالباً ما تسمى بالعقلانية، إلاّ أنها على النقيض مما يسميه بوبر بالعقلانية الصادقة.

وبالتالي فإنه يمكننا أن نسأل، ما هي الخطوط التي يمكن للشخص اللاعقلاني أن يطور موقفه انطلاقاً منها؟ إن هذه الخطوط تنطلق أولاً وقبل كل شيء من تأكيد اللاعقلاني أن الطبيعة الإنسانية هي في الأساس ليست عقلانية. فالإنسان كما يعتقد اللاعقلاني هو أكثر من حيوان عقلاني وهو أيضاً أقل من حيوان عقلاني، ولكي نفهم كيف يكون الإنسان أقل من حيوان عقلاني فإنه يكفي فقط أن نتأمل كيف أن عدداً محدوداً من البشر هم الذين يستطيعون النقاش. ووفقاً للاعقلاني فإن هذا هو السبب الذي يجعل أغلبية الناس يعالجون أمورهم على الدوام عن طريق الإحتكام إلى عواطفهم وانفعالاتهم وليس إلى عقولهم. إلا أن الإنسان كذلك هو أكثر من مجرد حيوان عقلاني، طالما أن جميع المسائل التي تعرض له في حياته تتخطى العقل. حتى أن قلة من العلماء ممن يتعاملون مع العقل والعلم بجدية فإنهم يلتزمون بموقفهم العقلاني لأنهم يحبونه. إذن فإن تكوين الإنسان العاطفي حتى في هذه الحالات النادرة، وليس عقله هو الذي يحدد موقفه، فضلاً عن ذلك فإن حدسه وتبصره الباطني في طبيعة الأشياء، وليس تفكيره المنطقي، هو الذي يجعل منه عالماً عظيماً. وبالتالي فإن العقلانية لا تستطيع أن تقدم تفسيراً واضحاً وملائماً حتى للنشاط العقلاني عند العلماء. لكن بما أن المجال العلمي هو المجال المفضل بصورة غير عادية للتفسير العقلاني، فإننا يجب أن نتوقع أن العقلانية سوف تفشل أكثر، وبصورة لافتة للنظر عندما تحاول أن تتعامل مع مجالات أخرى للنشاط

الإنساني. ومن هنا فإن هذا التوقع هو ما سوف يناقشه اللاعقلاني حتى يثبت أنه توقع دقيق تماماً. وإذا ما تركنا جانباً كل مظاهر الطبيعة الإنسانية الأوطأ وأخذنا نبحث في أحد مظاهرها الأعلى في واقعه أن الإنسان يستطيع أن يكون مبدعاً. فإننا نجد بأن الأقلية المحدودة من البشر المبدعين ممن لهم الأهمية بالفعل، وهم الرجال الذين أبدعوا أعمالاً في الفن أو الفكر والذين أسسوا الأديان ورجالات الدولة العظماء، هؤلاء الأفراد القلائل الأفذاذ، هم من سمحوا لنا أن نلمح العظمة الحقيقية للإنسان. لكن قادة النوع الإنساني هؤلاء -وإن قد عرفوا كيف يسخرون العقل في الوصول إلى أهدافهم وغاياتهم، إلاّ أنهم لم يكونوا على الإطلاق رجال العقل. إن جذورهم تكمن في ما هو أعمق، إنها تكمن في عمق نزعاتهم وبواعثهم، في تلك المجتمعات التي هم أجزاء منها. إن الإبداعية ليست عقلانية جملة بل هي قدرة باطنية.

خامساً: يميز بوبر بين موقفين عقلانيين، بين عقلانية نقدية وأخرى غير نقدية أو شمولية. ومع أن هذا التمييز مستقل عن التمييز السابق بين عقلانية صحيحة وأخرى زائفة، فإن العقلانية الصحيحة لن تكون إلاّ عقلانية نقدية. إن العقلانية غير النقدية أو الشمولية والمحيطة بكل شيء علماً، يمكن التعبير عنها في صورة المبدأ التالي: إن كل دعوى ليست مدعمة بالبرهان أو التجربة يجب إسقاطها. إلاّ أن هذا المبدأ العقلاني غير النقدي هو مبدأ تناقض. طالما أنه بدوره ليس مدعماً بالبرهان أو التجربة، ولذا فإنه ينطوي على وجوب إسقاطه (لأنه يتماثل مع حجة الكذاب، أي الحكم الذي يؤكد بأنه كذاب). ولذا فإن العقلانية غير النقدية يتعذر الدفاع عنها منطقياً، لأن البرهان المنطقي الخالص يثبت إمكانية هزيمتها بسلاحها، أي عن طريق البرهان.

ويمكننا أن نعمم هذا النقد بالقول: طالما أن كل برهان أو حجة يجب أن تبدأ من دعاوى، فإنه يكون من المستحيل بصورة واضحة الطلب بأن تكون كل الدعاوى قائمة على البرهان. إن إصرار بعض الفلاسفة على وجوب أن نبدأ من دعاوى أو إفتراضات لا تفترض شيئاً عن السبب الكافي، أو حتى الطلب إلا ضعف بوجوب أن نبدأ من عدد قليل جداً من الافتراضات (المقولات) فإن كلاً من الطلبين بهذه الصورة متناقض. لأن هؤلاء الفلاسفة يستندون بحق إلى إفتراض ضخم، مفاده: انه يمكن البدء بدون افتراضات أو من افتراضات قليلة فقط، وأن نصل مع ذلك إلى نتائج باهرة ومفيدة. إن هذا المبدأ في تحاشي كل الافتراضات المسبقة، ليس هو بالفعل كما يعتقد البعض دالاً على الكمال، ولكنه صورة عن مفارقة الكذاب.

وبصيغة أخرى، فإن ما يميز هذا الموقف ويعطيه كل الأهمية هو ارتباطه بالبرهان أو الخبرة. لكن لا الحجة المنطقية ولا الخبرة يمكن أن تقرر الموقف العقلاني، لأن الموقف العقلاني يتقرر فقط من جانب اولئك الذين هم على استعداد للتبصر بالحجة أو الخبرة، ومن أخذوا بهذا الموقف. أي أن الموقف العقلاني يجب الأخذ به أولاً إذا كان يجب أن يكون للحجة أو الخبرة تأثيرها أو فعلها. ولذلك كان الموقف العقلاني لا يمكن أن يكون مؤسساً على الحجة أو الخبرة وهو مستقل تماماً عما اذا كانت توجد حجج مقنعة لصالح الأخذ بها. ومن هنا فإننا نستنتج بأنه ما من حجة عقلانية سوف تؤثر على إنسان ما لا يريد أن يتبنى موقفاً عقلانياً. وبالتالي فإن العقلانية غير النقدية أو الشاملة لا يمكن الدفاع عنها.

وهذا يعني: أن كل من يتبنى موقفاً عقلانياً، فإنه يكون كذلك، لأنه قد تبنى بوعي أو بدون وعي إقتراحاً ما أو قراراً أو إعتقاداً أو سلوكاً، تبنياً يمكن أن يسمى لا عقلاني. سواء كان هذا التبني مؤقتاً أو أدى إلى عادة مستقرة، فإنه يمكننا أن نصفه بأنه إيمان لا عقلاني بالعقل. وبذا فإن العقلانية بالضرورة أبعد من أن تكون شمولية أو تامة بذاتها. وبالفعل فإن بعضاً من أعداء العقلانية لم يفتهم الإنتباه إلى أن الإنسان يستطيع دائماً أن يرفض التسليم بالحجج، اما كلها أو نوعاً معيناً منها، وأن مثل هذا الموقف يمكن القيام به بدون أن يصبح موقفاً متناقضاً منطقياً. وقد أفضى ذلك إلى الرأي العقلاني غير النقدي ممن يعتقد أن العقلانية تامة بذاتها، وأنه يمكن عن طريق الحجة لابد وأن يكون مخطئاً.

الطفلة البدينة

قصة الكاتبة الألمانية: ماري لويسة كاشنتز *
عن الألمانية: د. إبراهيم أبو هشهش * *

كان ذلك في نهاية كانون الثاني، بعيد عطلة عيد الميلاد عندما جاءت الطفلة البدينة إلي. كنت في ذلك الشتاء قد بدأت بإعارة كتب لأطفال الحي يتسلمونها ويعيدونها في يوم معين من أيام الأسبوع. وكنت طبعاً أعرف أغلب هؤلاء الأطفال، غير أنه كان يأتي في بعض الأحيان أغراب ممن لا يسكنون في شارعنا. وإذا كان العدد الأكبر منهم يحتاج إلى مدة الإعارة بأكملها فقد كان منهم أيضاً من يجلس ويشرع في القراءة حالاً. كنت أجلس إلى طاولة الكتابة أعمل بينما يجلس الأطفال إلى الطاولة الأصغر إلى جانب رف الكتب. وقد كان حضورهم مريحاً لي، ولم يزعجني.

جاءت الطفلة البدينة في أحد أيام الجمعة أو الأحد، ليس في يوم الإعارة المحدد على أية حال.

كنت قد قررت الخروج وأنوي أن أحضر إلى غرفتي وجبة خفيفة كنت قد أعددتها من قبل. قبل ذلك بقليل كانت لدي زائرة ويجب أن تكون هذه قد نسيت أن تغلق باب المدخل خلفها بعد أن خرجت، ولذلك حدث أن رأيت الطفلة أمامي من غير أن أحس بدخولها، مباشرة بعد أن وضعت الصينية على طاولة الكتابة واستدرت لأحضر شيئاً آخر من المطبخ. كانت فتاة في الثانية عشرة ترتدي معطف جوخ من طراز قديم عليه جلد أسود مشغول بالإبرة، وتحمل في حزام زوجاً من أحذية التزلج. بدت وكأنها مألوفة لي ولكن ليس تماماً. وكونها قد دلفت هكذا بهدوء تام فقد أفزعتني.

"هل أعرفك؟." سألت متفاجئة.

لم تقل الطفلة البدينة شيئاً. كانت تقف فقط واضعة يديها على بطنها المكوّر تنظر إليّ بعينين فاحمتين كالماء.

"أتريدين كتاباً ؟ "

لم تحرّ الطفلة أي جواب للمرة الثانية، ولكنني لم أستغرب ذلك جداً فقد كنت أعرف أن الأطفال خجولون وأن على المرء أن يساعدهم. وهكذا سحبت بضعة كتب ووضعتها أمام الفتاة الغريبة وأنشغلت في تعبئة البطاقات التي أدون عليها عناوين الكتب المعارة.

"ما اسمك؟" سألت.

"إنهم يدعونني البدينة." قالت الطفلة.

"وهل أدعوك هكذا أيضاً؟" سألت. "الأمر سيان عندي." قالت الفتاة، ولم ترد على ابتسامتي. وأعتقد الآن أنني أستطيع التذكر أن وجهها في تلك اللحظة قد غام بالألم.

ولكنني لم أنق بالاً لذلك.

"متى ولدت ؟" سألت

"في فاسرمان." قالت الطفلة بهدوء.

أضحكتني هذه الأجابة، ودونتها باستمتاع نوعاً ما على البطاقة، ثم توجهت إلى الكتب ثانية.

"هل تريدين شيئاً محدداً؟" سألت.

ولكنني لاحظت أن الطفلة الغريبة لا تعير الكتب أي أهتمام بل كانت ترمق الصينية التي وضعت عليها الشاي والخبز.

"ربما ترغبين في شيء من الطعام؟" سألت بسرعة.

أومأت الطفلة موافقة، وفي موافقتها تلك كان شيء من الاستغراب المهان لأني لم أنتبه إلى ذلك سوى الآن فقط. لقد بدأت تزدرد قطع الخبز واحدة بعد الأخرى بطريقة خاصة لم أفكر بها إلا مؤخراً فقط. ثم جلست ثانية وتركت نظرتها الثقيلة الباردة تجوس خلال الحجرة. وكان شيء ما في حضورها يملؤني بالحنق والنفور، نعم بالتأكيد، لقد كرهت هذه الطفلة منذ البداية. كل ما فيها يعث فيّ النفور: أعضاؤها الثقيلة، وجهها الجميل السمين، طريقتها في الحديث التي كانت ناعسة ومتكبرة في آن معاً. وعلى الرغم من أنني قررت أن أتنازل من أجلها عن مشوار المشي، إلا أنني لم أعاملها بلطف بأية حال من الأحوال وإنما بقسوة وبرود.

أو ربما يسمي المرء جلوسي إلى المكتب وإقبالي على عملي ثم قولي من فوق كتفي: والآن إقرأي- لطفاً؟ على الرغم من أنني أدركت تماماً أن الطفلة الغريبة لا تريد أن تقرأ بتاتاً. وقد حاولت أن أكتب ولكني لم أفلح في كتابة شيء ذي بال، فقد كنت أشعر بشيء من الخجل مثلما يريد المرء أن يحدس شيئاً ولكنه لا يستطيع، وقبل أن يستطيع أن يحدس بشيء لا يعود أي شيء مثلما كان من قبل. وطوال برهة أحتملت ذلك، ولكن ليس لمدة طويلة فقد استدرت وبدأت محادثة لم يخطر لي فيها سوى أكثر

---

* ماري لويسة كاشنتز

* * عميد شؤون الطلبة وأستاذ اللغة العربية مساعد، جامعة فيلادلفيا.

الأسئلة سخفاً.

"هل لك أخوة أيضاً؟" سألت.

"نعم" قالت الطفلة.

"هل تحبين المدرسة؟" سألت.

"نعم" قالت الطفلة.

"ماذا تحبين فيها بشكل خاص؟"

"ماذا لطفاً؟" سألت الطفلة

"أي موضوع؟" قلت بقنوط.

"لا أعرف" قالت الطفلة.

كنت أدير قلم الرصاص بين أصابعي بينما كان يتمو في داخلي شيء ما، فزع لا يتناسب بأيّة حال من الأحوال مع ظهور الطفلة.

"ألك صديقات؟" سألت مرتجفة.

"آه، نعم" قالت الطفلة.

"أنت بالتأكيد تحبين واحدة منهن أكثر؟" سألت

"أنا لا أعرف" قالت الطفلة.

كانت تجلس في معطفها الجوخ المشعر كأنها يرقة سمينة، ومثل يرقة أكلت الطعام، وكيرقة كذلك عادت تتشمّ ما حولها ثانية. لن تحصلي على أي شيء بعد - قلت في نفسي ممتلئة بشعور من الثأر. غير أني نهضت وذهبت وأحضرت خبزاً وسجقاً، فحملقت الطفلة في ذلك بوجهها الرطب ثم شرعت في الأكل مثل يرقة، ببطء ودأب، كما لو أنها مدفوعة إلى ذلك من ضغط داخلي. وكنت أراقبها بعداء وصمت.

لقد بات كل ما في هذه الطفلة يستفزني ويشعرني بالغضب. أي رداء أبيض سخيف! أي معطف مضحك بياقة ثابتة- كنت أفكر عندما شرعت الطفلة تزرر معطفها بعد أن فرغت من الطعام. عدت إلى عملي ثانية ولكنني كنت أسمع الطفلة من خلفي تتمطق، وكان صوت قطقها يشبه التمطق الثقيل لبركة سوداء في مكان ما في الغابة.

لقد مثّلت لي كل ما في الطبيعة البشرية مما هو مبلل ورطب وثقيل وعكر، وكدرت صفوي جداً. وفكرت: ماذا تريدين مني، أمضي أمضي. وكانت لدي رغبة في أن أدفع الطفلة بيدي خارج الغرفة مثلما يطرد المرء حيواناً كريهاً ولكنني لم أطردها من الغرفة إنما واصلت الحديث معها، ومرة ثانية، بالطريقة القاسية نفسها.

"أنت ذاهبة الآن للتزلج على الجليد؟"

"نعم" قالت الطفلة

"هل تحسنين إستخدام أحذية التزلج؟" سألت مشيرة إلى حذائي التزلج اللذين واصلت الطفلة تعليقهما على ذراعها باستمرار.

"أختي تستطيع ذلك جيداً. "قالت الطفلة. ومرة ثانية بدا على وجهها انطباع من الحزن والألم، ولكنني لم ألحظه هذه المرة أيضاً.

"كيف تبدو شقيقتك، هل هي مثلك؟" سألت

"أوه كلا- قالت الطفلة- شقيقتي نحيلة جداً ولها شعر أسود مجعد. وفي الصيف عندما نكون في الريف، فإنها تنهض في الليل حين تهب زوبعة، وتصعد إلى أعلى شرفة وتجلس على الدرابزين وتغني."

"وأنت؟" سألت

"أمكث في السرير، فأنا أشعر بالخوف." قالت الطفلة.

"أختك لا تشعر بأي خوف. أليس كذلك؟"

"بلى- قالت الطفلة- فهي أيضاً تلقي بنفسها من أعلى درجة في المنط في قفزة رأسية ثم تسبح بعيداً....."

"ماذا تغني شقيقتك إذاً؟" سألت بفضول.

"أنها تغني ما تريد- قالت الطفلة بحزن- أنها تؤلف قصائد."

"وأنت؟" سألت

"أنا لا أفعل شيئاً" ثم نهضت وقالت:

"يجب أن أذهب الآن"

مددت يدي فوضعت أصابعها الثخينة في راحتي. ولا أعرف بالضبط كيف شعرت في أثناء ذلك، شيء ما مثل طلب أو نداء ملح غير مسموع بأن أتبعها.

"تعالي مرة آخرى" ولكنني لم أكن جادةً في ذلك. ولم تقل الطفلة شيئاً وإنما نظرت إلى بعينيها الباردتين، ومضت. كان يجب أن أشعر بالتحسن فعلاً ولكنني حالما سمعت باب المدخل ينغلق، هرعت إلى الممر وتناولت معطفي وركضت نازلة الدرج بسرعة شديدة، ووصلت الشارع في اللحظة التي كانت الطفلة فيها تختفي في المنعطف التالي. وكنت أفكر: ينبغي أن أرى كيف تستخدم هذه اليرقة أحذية التزلج، يجب أن أرى كيف تتحرك هذه الكتلة الدهنية على الجليد. وحشت الخطى كي لا أضيع الطفلة من أمام عيني. كان الوقت ما بعد الظهيرة بقليل حينما دخلت الطفلة البدينة الغرفة علي، وها هو الغسق يهجم الآن.

وعلى الرغم من أنني قد أمضيت بضع سنوات من طفولتي في هذه المدينة إلا أنني لا أعرفها جيداً. وبينما كنت أجتهد في أن أتبع الطفلة لم أكن أعرف في أي الدروب كنا نمضي. وكانت الشوارع والميادين التي تعبرها غريبة علي تماماً. وقد لاحظت أيضاً-بشكل مفاجيء- تغيّراً في الهواء فقد أصبح شديد البرودة، لقد بدأ الآن بلا ريب ذوبان الثلوج بقوة شديدة فقد أخذ الثلج يرشح عن الأسطح، وكانت غيوم قادمة من جبال الألب تمضي في طريقها في السماء.

خرجنا من مدخل المدينة حيث المنازل محاطة بحدائق واسعة، ثم أصبحت المنطقة خالية كلياً من المنازل، وبعد ذلك أختفت الطفلة تماماً فقد إنحدرت الأرض فجأة. وفي حين أنتظرت أن أرى ساحة للتزلج بأرض مضاءة، ومصابيح مدلاة، وسطح مشع، بدا أمامي مشهد مختلف تماماً، فقد كانت هناك في الأسفل، البحيرة التي كنت أظن طوال الوقت أن شواطئها قد أصبحت الآن مكتظة بالبناء، ولكنها كانت متوحدة تماماً ومحاطة بالغابات

المعتمة، وكانت تبدو تماماً مثلما كانت في طفولتي. وقد أثارني هذا المشهد غير المتوقع لدرجة أنني كدت أن أضيع الطفلة الغريبة من ناظري، ولكنني بعد ذلك رأيتها مقرفصة على الشاطيء ترفع ساقاً فوق ساق وتحاول بيد أن تدخل حذاء التزلج في قدمها بينما تحاول بالأخرى أن تدير المفتاح. وقد سقط المفتاح منها مرات عديدة. ثم وقعت الفتاة على أريعتها وانزلقت على الجليد تفتش هنا وهناك وقد بدت مثل ضفدع ضخم غريب. وفوقها كانت العتمة تشتد باستمرار وكان رصيف السفن، الذي لا يبعد عنها سوى أمتار قليلة ثم يدخل في البحيرة، يقف أسود قاتماً في المسطح المترامي الذي يلمع لمعاناً فضياً ولكنه غير متجانس في كل مكان، فهنا وهناك كانت توجد بقع أشد أعتاماً، وفي هذه البقع كان ذوبان الجليد يعلن عن نفسه.

- "بسرعة" هتفت بصبر فارغ. وقد أسرعت البدينة فعلاً ولكن ليس بناءً على حضّي لها فقد كان هناك في الخارج قبل رصيف السفن شخص يسير في دوائر ويلوح صارخاً "تعالي يا بدينة" وقد بدا من بعيد كشبح فاتح اللون، وقد خطر لي أن هذا الشخص قد يكون الأخت الراقصة، مغنية الزوابع. الفتاة التي يتوق لها القلب، وحالاً بت مقتنعة أنه لم يأت بي إلى هنا سوى الرغبة في أن أرى هذا الكائن الظريف. غير أني أدركت في الحال أيضاً ما يتربّص بالطفلتين من خطر، فدفعة واحدة بدأ الآن ذلك التأوه الغريب، تلك الزفرة العميقة التي يبدو كأن البحيرة تطلقها قبل أن تشرع طبقة الجليد بالتكسّر، وهو تنهد يجري في الأعماق مثل تحبب مروع، وكنت أسمعه ولكن الطفلتين لا تسمعانه. كلا بالتأكيد أنهما لا تسمعانه، وإلا فإن البدينة، تلك المخلوق الرعديد، لن تمضي قدماً ولن تظل بدقاعتها الخشنة عديمة الحيلة مندفعة صوب الأمام أبداً، ولما كانت الأخت هناك خارج البحيرة تلوّح وتضحك وتدور على مقدمتي حذائي التزلج مستعرضة براعتها على الجليد مثل راقصة، ولتجنبت البدينة البقع السوداء التي تقف الآن أمامها فزعة ولكن لكي تعبرها، ولما نهضت الأخت فجأة منزلقة صوب الأمام دائماً ومتجهةً نحو واحد من الخلجان الصغيرة.

لقد أستطعت أن أرى كل ذلك جيداً لأنني كنت أسير على رصيف السفن متقدمة خطوة أثر خطوة. وعلى الرغم من أنّ الألواح كانت مغطاة بالجليد إلاّ أنني كنت أتقدم بسرعة أكبر من البدينة في البحيرة أسفل مني، وعندما ألتفت كنت قادرة على أن أرى وجهها المقبض الزاخر بالحنين في الوقت ذاته. كنت أستطيع أيضاً أن أرى الصدوع التي باتت الآن منتشرة في كل مكان، ومن بينها كان ينطلق قليل من ماء مزبد مثل زبد على شفتي شخص مجنون غضباً، ورأيت بالطبع كيف كان الجليد يتكسر تحت قدمي الطفلة البدينة، ثم حدث ذلك في المكان الذي كانت الأخت ترقص فيه قبل قليل، وعلى مبعدة أذرع قليلة فقط من نهاية الرصيف. ويجب القول هنا إن هذا التكسّر لا يشكل خطراً كبيراً يهدد الحياة، فالبحيرة تتجمد عادةً في طبقات عدة، والطبقة المتجمدة التالية على عمق متر واحد فقط من الأولى، وهي صلبة جداً وكل ما حدث هو أن البدينة أصبحت الآن تقف في عمق متر من الماء في ماء جليدي بطبيعة الحال، ومحاطة بكتل جليدية ضخمة طافية، وهي تستطيع- لو خاضت في الماء بضع خطوات- أن تصل الرصيف وتصعد عليه، وكنت أستطيع مساعدتها في ذلك، ولكنني فكرت حالاً أنها لن تفلح في هذا الأمر على الرغم من كل ذلك فقد بدت كأنها لن تفلح في ذلك فعلاً برأها وهي تقف هناك مرتعبة حدّ الموت، ولم تقم سوى ببضع خطوات عاجزة، بينما كان الماء يتدفق من حولها والجليد يتهشم تحت يديها، وفكرت: سوف يجذبها رجل الماء الآن نحو الأعماق. ولم أشعر في أثناء ذلك بأي شفقة عليها، ولم يتحرك أيّ شعور فيّ.

غير أن البدينة رفعت رأسها من الماء فجأة، ولأنّ الليل قد خيم وبدا القمر من وراء الغيوم فقد استطعت أن أرى وجهها بوضوح، لقد تغيّر فيها شيء ما، لقد كانت الملامح ذاتها وفي الوقت نفسه لم تكن هي نفسها. فقد كانت ممتلئة بالإرادة والتوق وكأنها في مواجهة الموت قد شربت كل الحياة، كل جذوة الحياة الموجودة في العالم. نعم، لقد كنت أعتقد أن الموت كان قريباً وأنّ هذه هي النهاية، وانحنيت على الدرابزين وحدقت في الوجه الأبيض أسفل مني، وكما من مرآة، نظرالوجه إلى من الجهة المقابلة من الطوفان الأسود، وكانت الطفلة في أثناء ذلك قد وصلت الوتد ومدت يديها وبدأت ترفع نفسها متسلقة. وكانت تمسك المسامير والكلاليب التي تبرز من الخشب برشاقة كاملة. كان جسدها ثقيلاً جداً وأصابعها مدماة تنزف، فسقطت، ولكن لتحاول من جديد. وقد كان ما أراه يشبه نضالاً طويلاً، نزاعاً عنيفاً للتحرر والتحوّل، مثل أنقضاض قشرة أو شرنقة. وصرت الآن أشعر برغبة في أن أساعد الطفلة، ولكنني كنت أعرف أن لا حاجة لذلك- لقد عرفتها.

لا أتذكر طريق عودتي للبيت في ذلك المساء، ولكنني أتذكر فقط قولي لإحدى الجارات على درج بيتنا أنه لاتزال هناك قطعة من شاطيء البحيرة بمرج وغابات سوداء، فتفت الجارة ذلك. ثم أنني فيما بعد عندما كنت أقلب أوراقي على طاولة الكتابة، عثرت في مكان ما بينها على صورة صغيرة قديمة أظهر فيها في ثوب أبيض صوفي بياقة ثابتة، وعينين فاتحتين كالماء، وكنت أبدو بدينة جداً.

* ماري لويسة كاشنتز

كاتبة ألمانية شهيرة، ولدت أبنة لضابط في مدينة كارلسروه من مقاطعة بادن- فورتمبرغ جنوبي غرب ألمانيا عام ١٩٠١ نشأت في بوتسدام وبرلين ودرست في فايمار وميونخ. حصلت على العديد من الجوائز الأدبية الرفيعة من بينها جائزة جورج بوخنر عام ١٩٥٥ توفيت في روما عام ١٩٧٥ هذه القصة من مجموعتها "ظلال طويلة- قصص "الطبعة الثالثة والعشرون.

هبلد سهايم: كلاسن فيرلاغ ١٩٩٤

ترجمة الشعر الغنائي

د. فايز أبو الكاس *

يفترض أن تكون لدى المترجم أولاً، القدرة الكافية على فهم اللغة الأصل واللغة الهدف والتعبير بهما، فهو شخص ذو لغتين، وأن يكون ذا دراية جيدة بثقافة المتكلمين باللغتين أي أنه شخص ذو ثقافتين ومن الضروري أيضاً أن يعرف المترجم معاني المفردات كما هي مفسّرة في المعجم وأية معانٍ أخرى اصطلح عليها الناطقون باللغة أو أية معانٍ يدل عليها سياق المادة المترجمة. فكلمة (رفيق) على سبيل المثال تعني رحيم، صاحب، زميل العمل، شريك، زميل الدراسة، عشيق ... ألخ (القاموس العصري: الياس). أما مترجم الأدب بشكل خاص، فيحمل على كاهله حملاً أثقل؛ إذاً هو ملزم بقراءة ما كتبه النقاد على اختلاف وجهات نظرهم، حول ذاك الجنس الأدبي الذي سيترجم حول ما قام به نقاد الأدب من تكشيفات فيه هنا أو هناك. وعليه أن يكون ذا اطلاع على ما قاله علماء مفردات اللغة وعلى ما قام به غيره من المترجمين من محاولات مختلفة لترجمة هذا النص، وإلا ستكون ترجمته ناقصة أو خطيرة.

وقبل أن نخوض في ترجمة الشعر دعونا نعرّف كلمة (ترجمة) فضفاضة المعنى. فهي كما عرّفها كاتفورد (١٩٦٥): «عملية استبدال نص في لغة ما بنص آخر في لغة أخرى،... وفي هذا المجال يقسم رومان جاكسون الترجمة إلى ثلاثة أنواع:

١- استبدال الكلمات أو إعادة صياغة الكلمات (Rewording)، وهي استبدال رموز مكتوبة برموز مكتوبة أخرى في اللغة نفسها كإعادة كتابة قصيدة بإسلوب نثري.

٢- الترجمة بمفهومها السائد (Translation Proper)، وهي استبدال رموز مكتوبة في لغة ما برموز مكتوبة في لغة أخرى.

٣- التحويل أو التغيير (Transmutation)، وهي عملية يتم فيها نقل رموز مكتوبة برموز غير مكتوبة كتحويل مسرحية إلى أداء من رقص الباليه أو رسم لوحة مستوحاة من قصيدة ما.

ويعنينا هنا، النوع الثاني الذي يتعلق بترجمة الشعر الغنائي من العربية إلى الإنجليزية وبالعكس، حيث تبرز في هذا الاتجاه مشاكل خاصة، أساسها وجود فجوة واسعة بين العربية كلغة سامية والإنجليزية كلغة جرمانية. وبناءً عليه يقوم بونّ شاسع بين الثقافتين. والمترجم هنا يحاول نقل ذات التأثير الموجود في القصيدة الأصل إلى القصيدة الهدف. مع أن الشاعر شيلي (Shelley) يصف هذه المحاولة بالقول: (ستكون مثل ذاك الذي يرمي زهرة بنفسج في فرن ليعرف المبدأ الذي يكوّن لونها ورائحتها)

وبما أن المترجم يهدف إلى خدمة أولئك الذين يترجم لهم -فتراه يلجأ إلى تعديلات ضرورية في ترجمته- فإنه يأخذ بعين الاعتبار شكل النص الأصلي ومضمونه لينقل بأمانة، أكبر قدر مما يسمى بالرسالة الأصل. وفي هذا الخضم يجد نفسه (يعاني معاناة المريض عصبياً حينما يلبسه الطبيب السترة الخاصة التي تحد من حركته) (بايسر ١٩٣٢، ذكرها نايدا: ١٩٦٤)

إنّ تجاوز الشكل والمضمون، أحدهما أو كلاهما، في ترجمة الشعر الغنائي، عملية لا بد منها، ويرجع هذا كما ذكرت إلى إختلاف اللغتين: الأصل والهدف، لذا فترجمة قصيدة غنائية يمكن أن تعتبر إعادة خلق أكثر منها

* كلية الآداب - جامعة فيلادلفيا

ترجمة أو نقلاً. وتكون النتيجة في أغلب الأحيان قصيدة جديدة في اللغة الهدف. وعلى سبيل المثال لنأخذ الشاعر شيلي، رغم معارضته لترجمة الشعر، حينما ترجم هومر وفيرجل وبايون وغوتة إلى روائع في الشعر الإنجليزي وهذه بعض السطور التي ترجمها عن أفلاطون:

Thou Wert the Morning Star among the living,
Ere thy fair light had fled,
Now having died thou art as Hesperus giving,
New splendour to the dead.

هذا الشعر الرفيع ستبقى ينبض بالقوة سواء كان يشبه الأصل بشكله ومضمونه أم خالفه. وسأحاول أن أقدم مضمون الأبيات السابقة بالعربية، محافظاً قدر الإمكان على مساحة الأبيات، لكنني سأخرج «مرغماً» عن شكل الأبيات وموسيقاها

كنت نجمة الصباح
في سماء الناظرين
ثم سرت للرواح
واختفى النور المبين
وهناك في بهاء
بين جمع الميتين
صرت كوكب المساء
زاد نوراً كل حين

إنّ التطابق في ترجمة الشعر أمر نادر جداً، كندرة إيجاد مترادفين مطلقين في مفردات اللغة الواحدة، لذا لا بدّ للمترجم أن يخون الأصل، تارةً في الشكل إنْ أراد أن يحافظ على المضمون وطوراً في المضمون إن أراد أن يحافظ على الشكل. إلاّ أنّ المترجم لا ينسى، كما ذكرت، أن ينقل «الرسالة الأصل». ولعلي لا أكون مخطئاً، لو نصحت بترجمة الشعر الغنائي ترجمةً يكتنفها بعض التصرف والتكيف. وفيما يلي أبيات معروفة في العربية، من قصيدة «الذئب والغنم» للشاعر محمد الهراوي، أنقلها إلى الإنجليزية حسب النصيحة السابقة:

الذئب: ضيف أعمى في ناديكم
يرجو النعمى من أيديكم
الغنم: هذا ذئبٌ أخفى النظرا
وأتى يحبو فخذوا الحذرا
الذئب: أهل البرّ من يؤويني
هل من حر فيواسيني
خروف: أنا أوليه من تحناني
وأواسيه في الباساء

The Wolf : A guest on thy land weak `nd blind,
Begs thine dole if he can find.
The sheep : This wolf is concealing sight,
Creeping in, be cautious right.
The wolf : O`sheep of charity` who shelters me,
Isn`t there one who can help me?
Lamb : Iam the one who grants`m amenty,
And sure helps`m of his calamity.

إنّ الناظر إلى الترجمة الإنجليزية، لابد أن يلاحظ أنّ بعض المفردات العربية، قد أغفلت ككلمة (حر) التي أستبدلت بكلمة "one" في الإنجليزية، مع العلم أنّ كلمة (حر) هنا لا تعني "free". لكنها تعني الرجل الشهم المضياف .وهذا التصرف يحدث أحياناً لضرورة الإيقاع.

أخيراً، أود أن أؤكد أنّ ترجمة الشعر من اللغة الأصل، إلى نثر في اللغة الهدف، أمر مرفوض تماماً، لأن موسيقى الشعر هي العامل الأهم في التأثير على القارىء أو المستمع. كما أنّ الترجمة موضوع حساس جداً، فالمترجم تائه بين الإخلاص للأصل والولاء لأولئك الذين يترجم لهم، وتظل الترجمة أولاً وأخيراً، كما قال كتّاب إيطاليا في عصر النهضة، كالنساء، كلما زاد جمالهن قل ولاؤهن والعكس أيضاً صحيح. أما نقاد المترجمين فهم كثر عند وجود الخطأ أو التقصير البسيط.

References

Catford,J. (1965) A Linguistic Theory of Translation. London : Oxford Univer.Press.

Newmark, P. (1988) A Text Book of Translation. London : Prentice Hall.

Nida, E.A. (1964) Toward a Seince of Translating. Leiden : E. J. Brill.

Raschauer, B. (1985) "On Translation" xth Congress of FIT Vien : Wilhelm Braumuller.

Elias. A. (1968) Al- asri Dict.onary Elias Press Cairo. Egypt